هلاهل من أعماق الخليج (قصة الكــعـيــبر)

السلام عليك يا قارئ هذه السطور
أحب أن أعرفك بنفسي

أنا التاريخ

أروي لكم بعض ما حصل في أيامي و أعوامي الممتدة

أروي لكم مشاهد من أرض الأحواز كنت شاهداً عليها

أروي لكم قصة " الكعيبر" القصة التي تتكرر منذ سنين طويلة في عربستان الأحواز في البر و البحر
و لغير الأحوازيين فالكعيبر هو: عبور الحدود الدولية لبلد ما بطريقة غير رسمية

فالأوضاع الاقتصادية في الأحواز تدفع الشباب و الرجال للهجرة خارج أرض الأحواز أرض الخير و العطاء للبحث عن لقمة العيش التي ينهبها المحتل الآثم صباح مساء ليسرف على نفسه و أذنابه في داخل و خارج ما يسمى بإيران و يمنع و يغصب من الأحوازيين

حصلت هذه الحكاية في مدينة المحمرة الباسلة في العام 2003 م

أول مشاهد قصتنا كانت صياح ديك ينادي الشمس راجياً منها أن تشرق من جديد على أرض الأحواز فتأبى الشمس إلا أن تستجيب
ليبدأ نهار جديد على هذه الأرض معلناً عودة مظاهر الحياة في الأحواز
عباس هو شاب عربي من أهل المحمرة و هو عاطل عن العمل كأغلب الشباب العرب و الذين يحرمون من التوظيف و العمل لصالح المهاجرين من الفرس و العجم ، و قد أختار الجلوس في الفلكه (الدوار) في الشارع بانتظار من يريد عامل أو أجير مقابل أجر زهيد بالكاد يكفيه لسد رمق يومه

و حتى هذا العمل أصبح يصعب الحصول عليه نظراً لمنافسة المستوطنين الفرس و العجم للشباب العربي عليه بطرق خبيثة، حيث يعرض العامل الفارسي أجر زهيد

مما يؤدي لتدني مستوى الأجور المتدني أصلاً مستفيداً من الدعم الحكومي للفرس و العجم على أرض الأحواز

كعادته صباح ذلك اليوم توجه عباس للفلكه حاملاً معه بعض الأدوات التي قد يحتاجها في عمله، نفس المنظر الرتيب يتكرر كل يوم وجوه تجلس في الشمس المحرقة تنتظر المنقذ الذي سوف يأخذهم من لهيب الشمس إلى عناء العمل

كلما توقفت سيارة أو شاحنه قفز الشباب إلى داخلها بتدافع شديد حتى إذا كان صاحب السيارة أو الشاحنة لا يحتاج إلى عمال و قد يكون توقف لشأن من شؤونه فلا يناله غير مشقة أنزال هؤلاء الشباب من السيارة بعد طول عناء و جدال

و في ذلك اليوم التقى عباس بصديقه محسن و الذي لم يراه منذ مدة و أخذوا يتبادلون أطراف الحديث حيث دار النقاش بينهم عن وضعهم المادي و ما أمكانية استمرارهم في هذا العمل الغير مجدي و ما هي خياراتهم لتحسين أوضاعهم المعيشية حيث أتفق الصديقان في الرأي على أن "الكعيبر" هو الحل الأمثل و قطع حديثهما توقف شاحنة ليقفز الصديقان في داخلها مع تدافع الآخرين

و بمجرد تحرك الشاحنة ينتهي مشهد الفلكه من يوم عباس لينتقل لمشهد أخر، نعم فحياة عباس و غيره من الشباب الأحوازيين أشبه بالمسرحية ذات السيناريو المتشائم و المظلم الذي لا يخفف من ظلام مشاهده غير أبطال المسرحية من الممثلين (الشباب الأحوازي) و الذين يبددون الظلام من مشاهد يصعب تصديق أحداثها و نصوصها لولا أنها تحدث في الواقع المرير للشعب الأحوازي

شمس يوم أخر تشرق على المحمرة تتكرر فيه نفس المشاهد من الحزن و الرتابة يجلس عباس مع محسن يتبادلون أطراف الحديث، نفس أحلام السفر لدولة من دول الخليج العربي و العمل فيها، ولكن هذه المرة طرأ تغير عملي على حديثهما حيث أتفق الصديقان على إيجاد شخص يمكنهم من قطع المسافة بين سواحل الأحواز لأحدى الدول الخليجية عن طريق البحر

ما أجمل هذا الحديث الذي تفوح منه إشراقت الشمس على سواحل الخليج العربي بما تزخر به من خيرات و مشاهد أكثر سعادة و وفرة المال و رغد العيش و ما يتبعها من مناظر الجمال و الفخامة
و ما أصعب و ما أكثر المخاطر التي تعتري تنفيذ هكذا خطة للعبور من الأحواز لأحدى دول الخليج من غدر المهربين و البحر، و مراقبة خفر سواحل الدول الخليجية و الهروب للمجهول

بعد أسابيع تنجلي المشاهد عن مشهد غريب، عباس و محسن يتفاوضان مع أحد المهربين ليوصلاهم لشواطئ أحد الدول الخليجية، معالم الفرح و السرور بادية على محيا عباس فمحسن أستطاع عقد الصفقة بسعر جيد مقارنة بما كان يتوقع، ومن الغريب أن نرى السعادة البادية على وجه عباس بالرغم من أنه سوف يهاجر من وطنه و يبتعد عن أهله و عشيرته .

ربما هم يفرحون فرحاً أنياً لأنهم بدؤوا يخطون خطواتهم الأولى في طريق التخلص من دوامة الفقر التي وجدوا أنفسهم فيها بفضل الحكومات الفارسية المحتلة التي مرت على الأحواز

و مضت الأيام و يقودنا المشهد لصورة هي بمثابة انتزاع الطفل الرضيع من أحضان أمه، على الشاطئ الأحوازي، ثلة من الشباب العرب و بعض الأكراد يتوافدون عند نقطة التجمع استعداداً للصعود إلى متن القارب الذي سوف يقلهم لشواطئ الدولة الخليجية

الصمت يلف المكان اختلطت المشاعر و الأحاسيس، إنهم يدركون أن بوصولهم لهذه النقطة يكونون عند مفترق طرق في مسيرة حياتهم، فراق الأهل و الأحبة و الخوض في لجج البحر بالرغم من القصر النسبي للمسافة .

يشق الصمت و سكون الليل طيف المهرب من بعيد، حيث تأكد من أن الكل موجودين ثم سار بهم لكوخ صغير على الشاطئ حيث غضوا ليلتهم و نهار اليوم التالي فيه، و قبيل الغروب أنطلق الشباب الأحوازيين مع مجموعة من المهربين في رحلة الكعيبر

حيث يخوضون قمار هذه الرحلة في قارب صغير يلتحفون السماء و يفترشون أرضية القارب، ينظر بعضهم لبعض في مشاهد لا تمحوها الأيام و لا السنين فقد صبغ الموقف وجوههم بهالة حيكت من خيوط النور و قطع الظلام
يلتفت محسن لعباس
و يقول له: عباس أنني خائف جداً تمنيت لو إنني لم أغادر الدار و لا الأهل و لا الأصحاب
فقال له عباس: أجبنت يا محسن أم ماذا لم أعهدك جباناً أو تتراجع عن أي قرار تتخذه صغير كان أم كبير فما الذي حصل هذه المرة
فأجاب محسن: لا أعلم يا أخي يا عباس ولكن إذا حدث لي مكروه لا سمح الله أبلغ حبي و سلامي لوالدتي العزيزة و أهلي أجمعين و أهل الأحواز الطيبين
رد عباس: أبلغهم ذلك بنفسك عندما تعود إليهم محملاً بالأموال و الهدايا

و عاد الصمت ليطبق أكثر من ما سبق حتى لا يكاد يسمع في القارب صوت نفس يصعد أو ينزل فتخال أن راكبي هذا القارب هم من الأشباح و ليس البشر

بعد ساعات صاح كبير المهربين لقد وصلنا للشاطئ يجب أن تكملوا طريقكم سباحةً لا نستطيع الاقتراب من الشاطئ أكثر من ذلك وإلا رصدنا خفر السواحل و الشرطة البحرية و عندها سنكون جميعاً في ورطة

أحتج بعض الشباب لما يعتقدون من بعد المسافة فطمئنهم كبير المهربين بأن الشاطئ قريب جداً و أنه لا داعي للقلق و قام بخداعهم بأن ألقى بنفسه في البحر و قال أنظروا أستطيع أن ألمس قاع الشاطئ بقدمي ، بكى شاب كردي من أكراد إيران كان بين المجموعة و بكى معه بعض الشباب الأحوازيين

و قفز الجميع للبحر و بمجرد تركهم للقارب صعد كبير المهربين و قادر القارب مسرعاً ليترك هؤلاء الشباب ليواجهوا قدرهم

أما الشاب الكردي فكان لا يجيد السباحة بشكل جيد و سرعان ما غرق و ابتلعته أمواج البحر و غرق من بعدة شاب أحوازي.
يقول عباس: لم يسعنا مساعدتهم كنا مرهقين و مضطربين وواصلنا السباحة و بعد لحظات استنجد بي صديقي محسن
و قال لي: عباس ساعدني لا أستطيع الحراك
وأخذ يتحرك بحركات سريعة و عنيفة، لقد أصابه التعب في وقت عصيب فلم أستطع حتى الاقتراب منه لأني أنا أيضاً كنت متعباً، مع ذلك حاولت عبثاً إنقاذه ولكن من دون جدوى و لم أعد قادراً على مواصلة عملية الإنقاذ فقد ابتلعت كمية كبيرة من مياه البحر، فاستلقيت على ظهري و لم أعد أحس بما حولي إلا مشهد واحد

جسد محسن يتهاوى إلى القاع بسكون و سلام غاصت روحي وراء جسده إلى أعماق البحر و استوقفني منظر بعض الأسماك و هي تتساءل عن هذا الجسد المتهاوي إلى القعر و الأتي من عالم اليابسة في ساعة مرور القرش الحكيم (الكوسي كما يسميه أهل الأحواز)، فأستنكر القرش الحكيم سؤال الأسماك عن جسد صديقي محسن و أنشد يقول "باللهجة العربية الأحوازية"

عفيه رجال الما تـــــهاب الموت و انشد
هما سباع عز و فخر و بيهم الظـهر ينشد
و أجسادهم الطاهرة بالبر و البـحر تنشد
يزلات العروبة و الكرامة يالي عنهم تنشد
و عــمـــت عين العدو على الراح ينشد
أحوازي و ما أنطيها بذل و التاريخ يشهد

عرفت الأسماك و البحر من هو صاحب هذا الجسد عرفوا من هو هذا الشهيد الأحوازي فانطلقت كل الأسماك و الحيتان و حتى قاع البحر يهلهل هلاهل الفرح لوصول جسد الشهيد إلى قاع البحر فمن مات غرقاً فهو شهيد .

أكاد لا أصدق نفسي أنها هلاهل من أعماق الخليج نعم أني أسمعها
بكيت ثم بكيت فبكيت ثم بكيت حتى سادت الظلمة ولم أعد أرى شيئا و بدأ صوت الهلاهل يخفت رويداً رويدا
فتحت عيني و إذا بي على الشاطئ تلاعب الأمواج قدمي مدغدغةً كأنها نست أنه بالأمس قد أخذت صديق عمري و رفيق رحلتي ببرودة أعصاب، فنهرت الأمواج زاجراً و استجمعت قواي مبتعداً عن البحر في حالة يرثى لها

و ما هي إلا لحظات حتى جاءت سيارة شرطة تطاردني فلم تحملني قدمي على الهرب منهم و أثرت بعد الذي حصل أن أسلم نفسي فلم أعد أرغب في متابعة هذه الرحلة التي أخذت مني الكثير، و بين يدي أفراد الشرطة تهاويت خائر القوى فتم نقلي للمستشفى

و بعد يومين تم نقلي لمركز الشرطة

و هناك بدأ التحقيق

المحقق: ما هو أسمك
عباس: أسمي عباس
المحقق: من أي البلاد أنت
عباس: أنا أحوازي عربي
المحقق: تقصد إنك إيراني
عباس: كلا أنا أحوازي و أنت تعرف تمام ما أعني و إلا فأنت لا تعرف تاريخ بلادك و لا منطقتك
المحقق: أعلم انك أحوازي و عربي، ولكن لماذا تسللت لبلادنا
عباس: إذا كنت تعلم بأني أحوازي و عربي فأني جئت لاجئاً لأخواني العرب هنا أبحث عن لقمة العيش الكريمة في بلاد أخواني العرب فأنا ضيفكم
المحقق: حياك الله و أهلاً و سهلاً بك ولكنك خرقت القوانين و الأنظمة و تسللت للبلاد بطريقة غير شرعية "جاي كعيبر" المحقق مازحاً
عباس: و أنا سلبت أرضي بطريقة غير شرعية و تخلى جميع العرب عني بطريقة غير شرعية و تناسوني ضاربين بعرض الحائط كل قيم و أنظمة الإسلام و العروبة و الحمية و الغيرة العربية و لم يكلفوا أنفسهم أن يتذكروني عندما سنوا قوانينهم لتشملني شرعيتهم أسوة بغيري من العرب

المحقق: سوف يتم أعادتك بكل أسف لإيران مرة أخرى و سوف تتعهد أن لا تعود للتسلل لبلادنا، أنا أسف يا عباس ولكن هكذا هي الإجراءات و القوانين
عباس: أترك لله و التاريخ تقييم هذه القوانين و تذكر يا سيادة المحقق أن دوام الحال من المحال فبأي عذر سوف تواجهون أهل الأحواز حين ينصرهم الله على الفرس لتخليكم عنهم و هم من أقرب الناس لكم و قد امتدت أيديكم شرقاً و غرباً لمساعدة الآخرين و بالأمس كان لأهل الأحواز المواقف المشرفة في مساعدتكم و نصرتكم

أنسحب المحقق من غرفة التحقيق ليقود الشرطي عباس لزنزانته حيث سمع شرطي أخر ينادي الشرطي الذي يقوده للزنزانة
و يا لسخرية القدر مما سمع عباس
إن الشرطي السجان يعود بنسبه إلى نفس العشيرة التي ينتمي إليها عباس فهما أبناء عمومه و من قبيلة عربية واحدة
و تسارعت الأحداث و تم تسليم عباس لإيران و فيها تم اعتقاله لمدة ثم أفرج عنه و ينتهي بنا هذا المشهد عند بوابة السجن

من سجن إلى سجن فالحرية في السجن الكبير في الأحواز الأسيرة

و يقودنا المشهد التالي لنفس الفلكه (الدوار)
هناك يجلس عباس حيث أعتاد الجلوس جسد من دون روح، فتتوقف شاحنة صغيرة يتهافت الشباب للوثوب داخلها و يتبعهم عباس فيتوقف و يلتفت وراءه للحظة متذكراً صديقه محسن
محسن الأحوازي الذي هلهلت بقدوم جسده الأسماك في أعماق الخليج

عباس من الفلكه إلى الفلكه مرة أخرى ولكن ليس لوقت طويل فقد عرف عباس أن الفلكه ليست مكانه و أن ما فاته خلال الثمانين عام الماضية هو عائداً بكل قوة ليعوضه و ليأخذ كل ذي حق حقه

أخوكم أبو محي الدين الأحوازي

****
****
الكعيبر هو: عبور الحدود الدولية لبلد ما بطريقة غير رسمية

و يقال أن أصل الكلمة عربي حيث تتكون من كلمتين
1- الكعب (كعب الرجل)

2- العبور: و العبور من كلمة عبر و يعبر كأن نقول يعبر فلان الطريق أي يقطعه من أحد جانبيه للجانب الأخر
و نرى في اللهجات العربية كلمات مشابهه ففي اللهجة العربية المصرية نجد كلمة "كعابي" أي قطع مسافة معينة سيراً على الأقدام

و قد دفع الاحتلال الفارسي بالعرب للهجرة خارج الأحواز لطلب الرزق نظراً للتضييق الذي يلاقيه العرب داخل الأحواز حيث جرت العادة أن يقطع الأحوازيين الحدود سيراً على الأقدام عبر الصحاري أو عن طريق البحر بالقوارب و السفن لأحدى الدول العربية على سواحل الخليج العربي بمساعدة أدلاء أو مهربين يرشدونهم خلال الطريق

حيث مات الكثير منهم في الطريق في البراري و البحار قبل بلوغ غايتهم، مع العلم أن بعض الفلسطينيين أتبعوا نفس الطريقة للدخول للدول الخليجية عن طريق مدينة البصرة و كما الحال مع الأحوازيين فإن الكثير من الفلسطينيين أيضاً ماتوا في الطريق

أخوكم أبو محي الدين الأحوازي